التّناصّ البلاغيّ النّقديّ في نصّ عبد القاهر الجرجانيّ

مفهوم (صورة المعنى) أنموذجاً

*الأستاذ الدكتور ناصيف ناصيف

** الدكتورة سهام صقر

***علا يوسف

ملخّص:

يستعين هذا البحث بمدخلٍ معرفيٍّ جديدٍ يُقارب النصّ النّقديّ ، ويُعنى برصد علاقاته بالنّصوص الغائبة التي تستدعيها قراءته الفاحصة. هذا المدخل – كما يكشف العنوان – هو التّناصّ الذي كَثُرت دراسته في النّصوص الإبداعيّة ، وغابت – أو تكادُ– عن النّصوص النّقديّة. من هنا فقد توجّهت عناية هذا البحث إلى التّناصّ النّقديّ بوصفه حقلاً معرفيّاً بكراً في الدّراسات النّقديّة العربيّة. وقد تخيّر البحث نصّاً تراثيّاً غنيّاً متناً يشتغل عليه ؛ هو النّصّ البلاغيّ النّقديّ لعبد القاهر الجرجانيّ (471هـ) ، ثمّ ضبط مجال الدّراسة ببحث التّفاعل النّصيّ مع النّصوص البلاغيّة التي سبقت هذا النصّ أو عاصرته في قضيّةٍ محدّدةٍ هي "صورة المعنى"؛ ليكشف عن أهمّ النّصوص الغائبة في النصّ الجديد ، وليُلقي الضّوء من خلال القراءة النّصيّة التّحليليّة على عمليّات التّحويل التي أحدثها في هذه النّصوص بعد تشرّبها، واستدراجها إلى بنيته الخاصّة.

كلمات مفتاحيّة: التّناصّ النّقديّ ، البلاغة ، النّقد ، الجرجانيّ ، صورة المعنى.

* أستاذ دكتور – قسم اللّغة العربيّة – كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة – جامعة تشرين – اللّاذقية – سوريّة.

** مدرّسة – قسم اللّغة العربيّة – كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة – جامعة تشرين – اللّاذقية – سوريّة.

*** طالبة دراسات عليا (دكتوراه) – قسم اللّغة العربيّة – كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة – جامعة تشرين – اللّاذقية – سوريّة.

The critical- rhetorical inter-textuality in the text of Abd al-Qaher al-Jurjani The concept of (meaning picture) as a model

* Dr.Nassif Nassif **Dr.Siham Sakr ***Aula Yousef

Abstract

This research tries to study the critical text in a new method , which is concerned with monitoring its relations with the implied-texts that the critical reading reveals. This new process - as the title reveals - is inter-textuality, which has been studied a lot in creative texts, and is absent - or almost - from critical texts. Hence, the attention of this research was directed to critical inter-textuality as a virgin field of knowledge in Arab critical studies.This research has chosen a rich heritage text to work on; It is the critical- rhetorical text of Abd al-Qaher al-Jurjani, then adjusting the study's settings: to reveal the implied- texts in the new text, and to highlight on the text transformation beyond the textual absorption and attracting the texts into its own structure.

Keywords: Critical inter-textuality, rhetoric, criticism, Al-Jurjani, the image of meaning

*Professor at Arabic language and Literature Department –Tishreen University –Lattakia-Syria.

**Doctor – Arabic Department-Faculty of Arts and Humanities-Tishreen University-Lattakia-Syria.

***P.HD student Arabic Department-Faculty of Arts and Humanities-Tishreen University-Lattakia-Syria.

مقدّمة:

لـم يقصـر منظّـرو التنـاصّ(intertextuality) دراسـتَه علـى ضـربٍ واحـدٍ مـن النّصـوص ، أو نمطٍ معيّنٍ من أنظمـة العلامـات ، بـل تكلّمـوا علـى التنـاصّ فـي نصـوص لغويّة وأخرى غير لغويّة[1]. بيد أنّ دراساتنا العربيّة توجّهت – في شطرٍ كبيرٍ منها – إلى النّصـوص اللّغويـة الإبداعيّـة ؛ تناقـدها ، وتسـتجلي حواريّتهـا، كاشـفةً عـن النّصـوص المنطوية عليها ، المتحوّلة في بنيانها، ولم تلتفت إلى دراسة التناصّ في النصّ النّقديّ ؛ مـع أنّ التّنظير للتنـاصّ النّقديّ بدأ مبكّراً نسبيّاً مـع الباحثة البرازيليّة ليلى بيرون موزاي التـي نشـرت مقـالاً عـام 1976م فـي العـدد (27) مـن مجلـة الشّـعريّة فـي فرنسـا بعنـوان "التّنـاص النّقـديّ" قـدّمت فيـه رؤيـة خاصّـة للتّنـاصّ فـي النّقد[2] ، وبحثـت الفـروق بـين الحواريّة الأدبيّة ونظيرتها النّقديّة ، وذلك بعد عقدٍ من الزّمن تقريباً علـى ظهور مصطلح التناصّ في كتابات جوليا كريستيفا ، وانتشار نظريّة التناصّ[3].

من هنا فقد توجّه اهتمام هذه الدّراسة إلى هذا الحقل المعرفيّ الذي يكاد يكون مُغيّباً عـن دراسـاتنا العربيّـة؛ ليكـون التّنـاصّ النّقديّ بـؤرة هذا البحـث ، ومحـور ارتكـازه . أمّـا انتقاء نـصّ عبـد القـاهر الجرجـانيّ حقـلاً تطبيقيّـاً لهـذه الدّراسـة التّناصـيّة ، فقد جـاء وليـد

[1] تحدّثت جوليا كريستيفا عن التناص في الموسيقى والرّسم والرّقص ؛ ينظر: نظريّة التّناص ،77.

[2] رأت الباحثة أنّ العلاقة بين المبدع والنّاقد تتضمّن الخضوع ؛ فالأدب نصّ يعلو النصّ النّقديّ . ولذلك وجدت أنّ النّظرة التّقليديّة إلـى النّقد بوصفه ميتالغة تلغي إمكانيّة إقامة حوارٍ حقيقيّ بين النّص النّقدي والنّص الإبداعيّ ؛ فالحوار يتطلّب المساواة ، ويسقط مع الخضوع والتّبعيّة. وانتهت في دراستها إلى أنّ رؤية النّقد بوصفه كتابةً موازيةً للكتابة الإبداعيّة السبيل الوحيدة للحديث عن تناصّ نقديّ حقيقيّ. لقراءة المقال كاملاً ينظر: التّناصّ النّقدي ، 55–84.

[3] ظهر مصطلح التناص في كتابات جوليا كريستيفا التي نُشرت بين عامي 1966–1967م في مجلّتي تل كيل Tel Quel ، وكريتيك Critique . وأُعيد نشر هذه الأبحاث في كتابها (سيميوتيك) الصّادر عام 1969م ، وفي كتابها (نـصّ الرّوايـة) الـذي صـدر عـام 1970م ، وفـي التّقديم لكتـاب (دوستويفسكي) لبـاختين ؛ ينظـر: آفـاق التناصيّة (المفهوم والمنظور) ، 80–81.

إيمان بضرورة مقاربة التّراث مقاربة جديدة ؛ تعيد قراءته ، وتكشف إمكاناته المخبوءة . ونصّ عبد القاهر – كما هو معلومٌ– من أبرز نصوصه الغنيّة التي لم تستنفدها القراءات الكثيرة. ونظراً لاتسّاع مادّة البحث ، فقد تخيّر البحث أنموذجاً واحداً من نصّه البلاغيّ النقديّ ؛ تأطيراً للدّراسة ، هو مفهوم "صورة المعنى" ؛ التعبير الذي كثّف فيه نصّ عبد القاهر رؤيته للعلاقة النّاظمة للّفظ والمعنى. ولتحقيق هذه الغاية انطلقنا – شأن الدّراسات التناصيّة– من النصّ اللاّحق (نصّ عبد القاهر البلاغيّ)؛ نتقرّاه ، ونتحرّى إنتاجيّته عبر الكشف عن أهمّ النّصوص الغائبة التي تستدعيها قراءته ، ثمّ نحدد موقعها في النصّ الجديد ، ونظهر آليات تحويلها.

أهميّة البحث وأهدافه:

لا شكّ أنّ أهميّة هذا البحث تستند إلى جدّة المدخل المعرفيّ الذي تخيّره للدّراسة ؛ أي إنّها تأتي من تخيّر نصّ نقديّ موضوعاً تطبيقياً للتناصّ. يُضاف إلى ذلك محاولة امتلاك التّراث امتلاكاً نوعيّاً عبر قراءته قراءة جديدة ، توظّف الأدوات المعرفيّة الحديثة في الكشف عن إمكانات النصّ التراثيّ. أمّا هدفه فهو الكشف عن طبيعة تفاعل نصّ عبد القاهر مع النصوص البلاغيّة النقديّة السّابقة والمعاصرة له في "صورة المعنى" ؛ لتعيين النّصوص التي وظّفها النصّ الجديد في تشكيله مفهوم صورة المعنى ، ثمّ الكشف عن طبيعة العلاقات التي أقامها مع النّصوص السّابقة والمعاصرة له.

طرق البحث وموادّه:

ينتحي هذا البحث سمتاً وصفيّاً تحليليّاً تفسيريّاً ، ينتهي إلى التّقويم ؛ فيتقرّى نصّ عبد القاهر البلاغيّ النّقديّ في كتابيه : أسرار البلاغة ، ودلائل الإعجاز ، كاشفاً عن أهمّ النّصوص البلاغيّة التي يُحيل عليها في مفهوم "صورة المعنى" ، مبيّناً وظائفها الجديدة المنوطة بها في النصّ الجديد ، موضّحاً طبيعة التّحويل الذي يحكم علاقة اللاّحق

بالسّابق. وعليه ، تكون مادّة البحث الأساسيّة هي : نصّ عبد القاهر البلاغيّ النقديّ في: أسرار البلاغة ، ودلائل الإعجاز ، والنّصوص البلاغيّة النقديّة التي سبقته وعاصرته.

صورة المعنى في نصّ عبد القاهر:

بات معلوماً أنّ نصّ عبد القاهر حطّم ثنائيّة اللّفظ والمعنى بوصفها إحدى الثّنائيّات الخدّاعة التي درجت عليها النّصوص السّابقة والمعاصرة له[1] ؛ فألغى الفصل السّائد بين اللّفظ والمعنى ، ووجّه الاهتمام إلى ذوبهما معاً في النّظم والأسلوب. واللّافت أنّه لم يقتصر في مسعاه هذا على وجهٍ واحدٍ ، بل قلّب المسألة على وجوهها ، واستحضر في تأسيسه القول بوحدة اللّفظ والمعنى نصوصاً نحويّة ، وكلاميّة ، وبلاغيّة يقصر عنها الإحصاء. وإذا كانت هذه الرّؤية قد تجلّت نحوياً في النّظم وتوخّي معاني النّحو فيما بين الكلم[2] ، وكلامياً في ترتيب الألفاظ في النّطق وفقاً لترتيب المعاني في النّفس[3]، محيلاً بذلك على المقولة الأشعريّة التي ترى حقيقة الكلام معانيَ نفسيّةً[4] ، فإنها تتجلّى بلاغياً في صورة المعنى ؛ موضوع بحثنا هذا.

والنّصوص التي تكشف رؤية النصّ لصورة المعنى كثيرةٌ ، جاء معظمها في سياق الرّد على مَن نسب الحُسن والمزيّة إلى اللّفظ ؛ كقوله : « والذي له صاروا كذلك ، أنّهم حين رَأوهم يفردون "اللّفظ" عن "المعنى" ، ويجعلون له حسناً على حدةٍ ، ورأوهم قد قسّموا الشّعر فقالوا: " إنّ منه ما حَسُن لفظه ومعناه ، ومنه ما حسن لفظه دون معناه ، ومنه ما حسن معناه دون لفظه" ، ورأوْهم يصفون " اللّفظ" بأوصافٍ لا يصفون بها "المعنى" ،

[1] ينظر: قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث ، ٣٤٠-٣٤٢.

[2] ينظر: كتاب دلائل الإعجاز ، 370.

[3] ينظر: نفسه ، 52-54 ، وكتاب أسرار البلاغة ، 5.

[4] كان عبد القاهر الجرجاني متكلّماً أشعريّاً ، وقد رأى الأشاعرة أنّ الكلام –على الحقيقة– هو المعاني النّفسية ؛ ينظر: في علم الكلام (دراسة فلسفية لآراء الفرق الإسلامية في أصول الدّين) ، 2/ 69-77.

ظنّوا أنّ للّفظ ، من حيث هو لفظٌ حسناً ومزيّةً ونُبلاً وشرفاً ، وأنّ الأوصاف التي نَحَلُوه إيّاها هي أوصافه على الصّحة ، وذهبوا عمّا قدّمنا شرحه من أنّ لهم في ذلك رأياً وتدبيراً، وهو أن يَفْصِلوا بين المعنى الذي هو الغرض ، وبين الصّورة التي يخرج فيها ، فنسبوا ما كان من الحسن والمزيّة في صورة المعنى إلى" اللّفظ" ، ووصفوه في ذلك بأوصافٍ هي تُخبر عن أنفسها أنّها ليست له...»[1] ، وقوله: « وقد علمنا أنّ أصل الفساد وسبب الآفة، هو ذهابهم عن أن من شأن المعاني أن تختلف عليها الصّور ، وتَحْدُث فيها خواصُّ ومزايا من بعد أن لا تكون...وذلك أنّهم لمّا جهلوا شأن الصّورة ، وَضعوا لأنفسهم أساساً، وبَنَوْا على قاعدة فقالوا : إنّه ليس إلّا المعنى واللّفظ ، ولا ثالث...»[2] ؛ فنفى أيّة قيمةٍ للّفظ المفرد وأصل المعنى[3]، وردّ المزيّة إلى التشكيل ، والصّورة التي يخرج فيها المعنى ، مؤيّداً تصوّره النّظريّ بأمثلةٍ تطبيقيّةٍ كثيرةٍ[4] ، مكثّفاً في مفهوم "صورة المعنى" رؤيته للنصّ بوصفه تصويراً للمعنى ، وتشكيلاً له ، وهيئةً يتفاعل فيها اللّفظ والمعنى ، ويذوبان معاً. وهنا تجدر الإشارة إلى أنّ صورة المعنى لا تقتصر في نصّ عبد القاهر على الصّورة البيانيّة ؛ فالمعنى يتشكّل بالتّشبيه ، والتّمثيل ، والاستعارة ، والتّقديم والتّأخير ، والتّعريف والتّنكير ، وغيرها[5].

والملاحظ أنّ تعبير (صورة المعنى) يحضر في نصّ دلائل الإعجاز بوصفه مصطلحاً قارّاً ، يكتنز مدلولات الانسجام ، والتّناسق ، والجماليّة الناتجة من خصوصية

[1] كتاب دلائل الإعجاز ، 365-366.

[2] نفسه ، 481.

[3] ينظر: نفسه ، 266 ، 422.

[4] ينظر: نفسه ، 261، 265 -266 ، 423 ، 425 ، 427-428 ، 507-508 ، 535-536.

[5] ينظر: نفسه ، 265-266 ، 364 ، 371-372 ، 423-425 ، 427.

التّشكيل ، وفرادة الأسلوب ، مقابل شيوع المعنى وابتذاله بوصف (المعنى) دالّاً على الغرض[1].

وعلى نحو مغاير يُذكر تعبير (صورة المعنى) عَرَضاً في نصّ الأسرار[2] ، منطوياً على الدّلالات ذاتها. وفي سياق تأصيل نصّ عبد القاهر هذا المصطلح ، وبسط مفهومه ، وتواشجاته مع المعنى الأصل ، والأسلوب ، والنّظم ، ومعنى المعنى ، وغيرها نلاحظ أنه يستخدم دوالّ : الشّكل[3] ، والصّفة[4] ، والهيئة[5] بوصفها مرادفاتٍ للصّورة. الأمر الذي يوجّهنا مباشرة إلى معجمات اللّغة التي تشرح (الصّورة) بالدّوال السّابقة نفسها ؛ ففي معجم مقاييس اللّغة لابن فارس (٣٩٥هـ) : صورة كل مخلوق هيئةُ خلقته. والله تعالى المصوِّر[6]. وقال الرّاغب الأصفهاني(٤٢٥هـ): " الصّورة : ما يُنتقش به الأعيان، ويتميّز بها غيرها ، وذلك ضربان : أحدهما محسوس يدركه الخاصّة والعامّة ، بل يدركه الإنسان وكثير من الحيوان ، كصورة الإنسان والفرس والحمار بالمعاينة ، والثّاني : معقول يدركه الخاصّة دون العامة ، كالصّورة التي اختُصّ الإنسان بهما من العقل والرّوية ، والمعاني التي خُصّ بهما شيء بشيء . وإلى الصّورتين أشار بقوله تعالى : "ثمّ صوّرناكم" ...وقال عليه السّلام : " إنّ الله خلق آدم على صورته" فالصّورة أراد بها ما خُصّ الإنسان من الهيئة المدركة بالبصر والبصيرة ، وبها فضّله على كثير من خلقه..»[7]. وجاء في لسان العرب: « في أسماء الله تعالى: المصوّر وهو الذي صوّر جميع الموجودات ورتّبها ، فأعطى كلّ شيءٍ فيها صورة خاصّة وهيئة مفردة يتميّز بها ،

[1] ينظر: نفسه ، ٣٦٦.
[2] ينظر: كتاب أسرار البلاغة ، ٢٧٨ ، ٣٠٤ ، ٣١٦.
[3] ينظر: كتاب دلائل الإعجاز ، ٢٦٥ ، ٢٦٦.
[4] ينظر: نفسه ، ٤٢٥ ، ٤٨٦ ، ٥٠٧.
[5] ينظر: نفسه ، ٩٧ ، ٢٦٥ ، ٥٠٧.
[6] ينظر: معجم مقاييس اللّغة ، 3/ ٣٢٠(صور).
[7] المفردات في غريب القرآن ، 427(صور).

علـى اختلافهـا وكثرتهـا. ابـن سِـيْدَه : الصّـورة فـي الشّكل...وتصـوّرت الشّـيء: توهّمـتُ صورته فتصوّر لي... قال ابن الأثير: الصّورة ترد في كلام العرب على ظاهرها ، وعلى معنى حقيقة الشيء وهيئته، وعلى معنى صفته»[1].

أي إنّ (الشّكل ، والهيئة ، والصّفة) مرادفاتٌ لغويةٌ للصّورة ، نقلها نصّ عبد القاهر إلـى المستوى الاصـطلاحيّ الذي يدور في فلك الأول اللّغوي . ويبدو أنها دوالٌ تتمركز حول دلالة أساسيّة هي الشّكل الذي تتجلّى به المادّة ، وتتميز به من أفراد جنسها. ومن هذه الدّلالـة تنـتج دلالـة مهمّـة أخرى تقرن التّصـوير بالتّركيـب ، والخلـق ، وتسم الصّـورة بطـابع مصـوّرها. وتصـحّ هاتـان الـدّلالتان علـى الصّـورتين : الحسيّة والمجرّدة. وقد أكّد نـصّ عبـد القـاهر انطلاقـه مـن أسـاس لغـويّ ، وتأسـيس مفهومـه للصّـورة علـى التّـراث البلاغيّ في نصّ جاء فيه : « واعلم أنّ قولنا "الصّورة" ، إنما هو تمثيلٌ وقياسٌ لما نعلمه بعقولنا علـى الذي نـراه بأبصـارنا ، فلمّا رأينا البينونـة بين آحـاد الأجنـاس تكون من جهـة الصّورة ، فكان تبيّن إنسان من إنسان وفرس من فرس ، بخصوصيّة تكون في صورة هذا لا تكون في صورة ذاك ، وكذلك كان الأمر في المصنوعات ، فكان تبيّن خاتم من خـاتم وسوار من سوار بذلك ، ثم وجدنا بين المعنى في أحد البيتين وبينـه فـي الآخر بينونـةً فـي عقولنا وفرقاً ، عبّرنا عن ذلك الفرق وتلك البينونة بأن قلنا : " للمعنى في هذا صورة غير صورته في ذلك". وليس العبارة عن ذلك بالصّورة شيئاً نحن ابتدأناه فينكره منكرٌ ، بل هو مستعملٌ مشهورٌ في كلام العلماء ، ويكفيك قول الجاحظ: " وإنما الشّعر صياغة وضرب من التّصوير "»[2].

يعلن هذا النصّ –عبر إشارته إلى اختلاف صور المصنوعات– اشتباكه بالنّصين: الإبداعيّ الشّعريّ ، والبلاغـيّ النّقديّ ؛ فقد شـاع فـي هذين النّصـين الـرّبطُ بـين الشّـعر

[1] لسان العرب ، ٢٥٢٣/٤(صور).
[2] كتاب دلائل الإعجاز ، ٥٠٨.

وضروب الصّناعات التي يفضل فيها الصّانعُ الصّانعَ كالحوك ، والنّسج ، وصوغ الشّنف والسّوار. ويبدو أنّ نصّ عبد القاهر الذي أكثر التّنبيه على هذه الصّلة في نصوص سابقيه[1] أقرَّ هذه العلاقة ، مقترباً من عددٍ من النّصوص بدرجات متفاوتة ؛ خاصّة تلك التي ذهبت إلى أنّ عمل الشّاعر يتعلّق بإحداث صور في المعاني كنصّ قدامة بن جعفر(337هـ)[2] ، ونصّ ابن سينا(427هـ)[3] ، أو تلك التي رأت اللّفظ صورة المعنى كنصّ الرّمانيّ(386هـ)[4]. لكنّ الملاحظ أنّ هذه الإشارات التي تشكّل نقطة التحام بيّنة لنصّ عبد القاهر بأسلافه ليست متناً في النّصوص الغائبة ، بل تظهر سريعة عابرة ؛ ولذلك هي –في الغالب– محكومةٌ بسياق النصّ الذي تنتمي إليه؛ الأمر الذي يفرض وقفة منفردةً عند كلّ نصّ ؛ للكشف عن العلاقة التي تربطه بالنصّ الجديد. لا نستثني من ذلك إلّا نصّ الجاحظ(255هـ) الذي استحضره نصّ عبد القاهر صراحةً ، وأقام حواراً مباشراً معه في غير موضعٍ[5]، مقرّاً مقولاته بصورةٍ عامّةٍ ؛ الأمر الذي دفعنا إلى تقرّي نصّ الجاحظ ومناقدته ؛ لبحث التناصّ معه في "صورة المعنى" ، إضافةً إلى نصّ قدامة ابن جعفر بوصفه مثالاً لضربٍ آخرَ من التّفاعل النّصيّ ، يمكن أن نقيس عليه نظائر كثر.

– التناص مع نص الجاحظ :

تكشّفت القراءة الاستكشافيّة الأولى لنصّ عبد القاهر عن حضور جليّ لنصّ الجاحظ، تكثّفه العبارة ذائعة الصّيت: « فإنّما الشّعر صناعة ، وضرب من النّسج ،

[1] ينظر: كتاب دلائل الإعجاز، ٣٤–٣٥ ، ٤٩، ٥٣ ، ٢٥٤–٢٥٥ ، ٢٦٠ ، ٤٢٢ ، وكتاب أسرار البلاغة ، ٣٤٢ –٣٤٣.

[2] ينظر: نقد الشّعر ، 65.

[3] ينظر: في الشّعر ، 214.

[4] ينظر: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، ٧٦.

[5] ينظر: كتاب دلائل الإعجاز ، ٢٥٠–٢٥١ ، ٢٥٦–٢٥٧ ، ٤٨٢ ، ٦٠٢ ، ٦٠٣. وقد استشهد بالجاحظ وذكره صراحة في سياقات أخرى ؛ ينظر: نفسه ، ٥٧ ، ٥١١ ، ٥٥٦ ، ٥٩٨–٥٩٩ ، وكتاب أسرار البلاغة ، ١٤٧.

وجنس من التّصوير »[1]. الأمر الذي بعث تساؤلات عدّة حول طبيعة علاقة اللّاحق بالسّابق ، ودفعنا إلى تقرّي النّصين بحثاً عن مواضع اشتباكهما ؛ لنخلص إلى أنّ هذا الاستدعاء المتكرّر واعٍ مقصودٌ ، يُعلن فيه نصّ عبد القاهر انتسابه إلى نصّ الجاحظ وتأسّسه على مقولات سلفه . وهذا لا يعني أنّ النصّ اللّاحق لم يُحدث تحويلاً في النّصّ السّابق ، وإنّما نلاحظ أنّ حواره مع سلفه – مع اتّسامه بالنّديّة – كان هادئاً ؛ أصّل اللّاحقُ فيه السّابقَ ، وخالفه في القليل الأقل أهميّة. وكلامنا هنا على علاقة اللّفظ بالمعنى بصورة عامّة ، وصورة المعنى بصورة خاصّة.

إنّ أهمّ ما يدعم كلامنا السّابق ، ويشكّل نواة التناصّ الذي وصفناه آنفاً ، ظهور كلّ من : " المعنى" ، و"صورة المعنى" في نصّ الجاحظ بدالّهما ومدلولهما ذاته في نصّ عبد القاهر؛ فنصّ الجاحظ الذي فتّق الكلام على اللّفظ والمعنى وعى في الوقت نفسه أنّ المعنى مطروح في الطريق[2]، أمّا صورته فهي وليدة نظم خاصّ ، وتفاعل تنتظم وفقه المعاني ، وتتفاعل فيه عناصر التّركيب. على حين غاب هذا الفهم عن نصوص كثيرة تلته. واللّافت أنّ نصّه أبرز دالّ (الصّورة) بدلالتيه : اللّغوية بمعنى الشّكل[3]، والاصطلاحيّة بمعنى التّشكيل الفنيّ[4]، وأكثر استخدامهما. وبهذه الدّلالة الأخيرة أثبت غير نصّ ؛ أبرزها النّصوص الآتية:

– « إنّ الإعراب يُفسد نوادر المولّدين ، كما أنّ اللّحن يفسد كلام الأعراب ، لأنّ سامع ذلك الكلام إنما أعجبته تلك الصّورة وذلك المخرج ، وتلك اللّغة وتلك العادة ؛ فإذا دخلْت على هذا الأمر – الذي إنما أضحك بسخفه وبعض كلام العجميّة التي فيه– حروف

[1] كتاب الحيوان ، ١٣٢/٣. وجاءت في نصّ عبد القاهر ؛ ينظر: كتاب دلائل الإعجاز ، ٥٠٨.
[2] ينظر: كتاب الحيوان ، ١٣١/٣.
[3] ينظر: نفسه ، ٢٢/٤ ، ٢٥٠/٦ ، والبيان والتبيين ، ١/ ٧٠ ،٧٦.
[4] ينظر: كتاب الحيوان ، ١/ ٢٨٢ ، ٦/ ٤٦٦ ، والبيان والتبيين ، ١/ ٦٩، ٧٠.

الإعراب والتّحقيق والتّثقيل وحوّلته إلى صورة ألفاظ الأعراب الفصحاء ، وأهل المروءة والنّجابة انقلب المعنى مع انقلاب نظمه ، وتبدّلت صورته»[1].

– « وإنّما الألفاظ على أقدار المعاني ، فكثيرها لكثيرها ، وقليلها لقليلها ، وشريفها لشريفها ، وسخيفها لسخيفها. والمعاني المفردة ، البائنة بصورها وجهاتها ، تحتاج من الألفاظ إلى أقلّ ممّا تحتاج إليه المعاني المشتركة ، والجهات الملتبسة..»[2].

–« فصورة الكلام هو الإرادة وهو القصد»[3].

– « فإذا رأت مكانه الشّعراء ، وفهمته الخطباء، ومن قد تعبّد للمعاني ، وتعوّد نظمها وتنضيدها، وتأليفها وتنسيقها ، واستخراجها من مدافنها ، وإثارتها من مكامنها ، علموا أنهم لا يبلغون بجميع ما معهم ممّا قد استفرغهم واستغرق مجهودهم ، وبكثير ما خُوِّلوه ، قليلاً مما يكون معه على البداهة والفجاءة...»[4] ؛ والكلام هنا على النبيّ محمّد (ص).

– « وشرّ البلغاء من هيّأ رسم المعنى قبل أن يهيّئ المعنى ، عشقاً لذلك اللّفظ ، وشغفاً بذلك الاسم ، حتى صار يجرُّ إليه المعنى جرّاً ، ويلزقه به إلزاقاً..»[5].

تكشف هذه النّصوص عن منطقة اشتراك واسعة ، يمتح فيها اللّاحق من السّابق ؛ فيشاركه في مقولاتٍ بارزةٍ ؛ منها:

– إنّ بينونة المعاني كامنة في صورها؛ أي في الخصائص والزّيادات التي تحدث في أصول المعاني[6].

– تغيير النّظم يغيّر صورة المعنى[7].

---

[1] كتاب الحيوان ، 282/1.

[2] كتاب الحيوان ، 8/6.

[3] نفسه ، 180/1.

[4] البيان والتبيين ، 30/4.

[5] رسائل الجاحظ ، 40/3 .

[6] ينظر: كتاب دلائل الإعجاز ، 260 ، 266.

[7] «...فأمّا إذا تغيّر النّظم فلا بُدَّ حينئذٍ من أن يتغيّر المعنى..» ؛ نفسه ، 265.

– لا ينكشف غرض المتكلّم ومراده إلا بالشّكل الذي تجلّى فيه كلامه[1].

– يحدث النّظم بتأليف المعاني ، وتنسيقها ، وتنضيدها[2].

– يبدأ النّظم بالمعاني وينتهي بالألفاظ ؛ لذلك فإنّ شرّ البلغاء من يهيّئ رسم المعنى قبل أن يهيّئ المعنى ذاته[3].

إضافة إلى كلّ ما سبق تستوقفنا إشارة أخرى نعتقد أنها تدعم وصف علاقة التناصّ السّابقة ينطوي عليها النصّ الآتي: « ولو فرضنا أن تنخلع من هذه الألفاظ ، التي هي لغات ، دلالتها ، لمَا كان شيء منها أحقّ بالتّقديم من شيء ، ولا تُصُوِّرَ أن يجب فيها ترتيب ونظم. ولو حفّظتَ صبيّاً شطرَ " كتاب العين" أو " الجمهرة" ، من غير أن تُفَسِّر له شيئاً منه ، وأخذته بأن يَضبطَ صور الألفاظ وهيآتها ، ويؤدّيها كما يؤدّي أصناف أصوات الطّيور ، لرأيته ولا يخطُر له ببال أنّ من شأنه أن يؤخّر لفظاً ويقدّم آخرَ ، بل كان حاله حالَ من يرمي الحصى ويَعدُّ الجوزَ »[4]. إنّ هذا النصّ المنشغل بكشف علاقة اللّفظ بالمعنى يحيل بتعبير "صور الألفاظ وهيآتها" على الأصوات ، مؤكّداً ذلك بتشبيه من حفظ هذه الصّور دون فهمها بتأدية أصوات الطّيور. وهذا الرّبط بأصوات الطّيور يستدعي نصّاً للجاحظ جاء فيه: « وتزعم الهند أنّ سبب ما لهُ كَثُرَ كلامُ الناس واختلفت صور ألفاظهم ، ومخارج كلامهم ، ومقادير أصواتهم في اللّين والشّدة ، وفي المدّ

[1] « المعاني الحاصلة من مجموع الكلام أدلّة على الأغراض والمقاصد» ؛ نفسه ، 441.

[2] « ...ألا ترى أنّا لو جهدنا كُلّ الجهد أن نتصوّر تعلّقاً فيما بين لفظين لا معنى تحتهما ، لم نتصوّر؟ ومن أجل ذلك انقسمت الكلم قسمين: "مؤتلف"...و"غير مؤتلف" ...ولو كان التّعلّق يكون بين الألفاظ ، لكان ينبغي أن لا يختلف حالها في الائتلاف ، وأن لا يكون في الدّنيا كلمتان إلا ويصحّ أن يأتلفا ، لأنه لا تنافي بينهما من حيث هي ألفاظٌ» ؛ كتاب دلائل الإعجاز ، 466.

[3] «...وأنك إذا فَرغتَ من ترتيب المعاني في نفسك ، لم تحتج إلى أن تستأنف فِكراً في ترتيب الألفاظ ، بل تجدها تترتّب لك بحكم أنّها خدمٌ للمعاني ، وتابعةٌ لها ، ولاحقةٌ بها ، وأنّ العلم بمواقع المعاني في النفس ، علمٌ بمواقع الألفاظ الدّالة عليها في النّطق» ؛ نفسه ، 54.

[4] نفسه ، 50.

والقطع–كثرة حاجاتهم. ولكُثْرِ حاجاتهم كثرت خواطرهم وتصاريف ألفاظهم ، واتّسعت على قدر اتّساع معرفتهم. قالوا: فحوائج السّنانير لا تعدو خمسة أوجه : منها صياحها إذا ضُربت ، ولذلك صورة. وصياحها إذا دعت أخواتها وآلافها ، ولذلك صورة. وصياحها إذا دعت أولادها للطّعم ، ولذلك صورة. وصياحها إذا جاعت ، ولذلك صورة. فلمّا قلّت وجوه المعرفة ووجوه الحاجات ، قلّت وجوه مخارج الأصوات. وأصواتها تلك فيما بينها هو كلامها»[1]. وفي هذا النصّ –أيضاً– تبدو (صورة اللّفظ) دالّاً مدلوله الصّوت . إلّا أنّنا لم نعقد صلة بين النّصين بسبب هذه الدّلالة التي تبدو بدهيّة ؛ فلا شكّ أنّ ما يميّز لفظاً من آخر هو صوته. ولكن الذي دفعنا إلى ترجيح التناصّ في هذا الموضع هو وجود التّعبير نفسه في النّصين؛ وهو تعبير غير شائع في نصوص المدوّنة البلاغيّة النقديّة ، ثمّ ربطه بالكلام على أصوات الطّيور.

وبعدُ ، فثمّة إشارات كثيرة تزكّي الرّؤية السّابقة ؛ نذكر منها باختصار شديد: كلام النّصين على مشاكلة اللّفظ للمعنى ، وربط ذلك بسياق نفسيّ جماليّ ، يلحّ على تلاحم أجزاء النّظم[2] ، ويقرن النّظم الفنّيّ بالسّبك والتّصوير والصّياغة والنّحت[3]. وهنا نؤكّد أنّ نصّ الجاحظ لم يختزل التّلاحم بالجانب الصّوتيّ الإيقاعيّ البحت كما قد يشي قوله: «وأجود الشّعر ما رأيته متلاحم الأجزاء ، سهل المخارج ، فتعلم بذلك أنه قد أُفرغ إفراغاً واحداً ، وسُبك سبكاً واحداً ، فهو يجري على اللّسان كما يجري الدّهان»[4] ، لكنه رآه أحد التّجليات الجماليّة للتّركيب الفنّيّ ؛ إذ نظر إلى تناغم هذه الأصوات ، وتأثيرها في

[1] كتاب الحيوان ، 21/4–22. ولم يذكر الجاحظ إلا أربع حاجات للسنانير ، مع أنه قال إنها خمس حاجات.

[2] ينظر: البيان والتبيين ، ٦٧/١ ، ٩٢–٩٣ ، ١١٥ ، ورسائل الجاحظ ، ١/ ٢٦٢ ، وكتاب دلائل الإعجاز ، ٩٣–٩٥.

[3] ينظر: كتاب الحيوان ، ٣/ ١٣٢ ، والبيان والتبيين ، ٦٧/١ ، ٢٩/٣ ، ٢٤/٤ ، وكتاب دلائل الإعجاز ، ٣٤–٣٥ ، ٤٩، ٥٣ ، ٢٥٤–٢٥٥ ، ٢٦٠ ، ٤٢٢ ، وكتاب أسرار البلاغة ، ٣٤٢ –٣٤٣.

[4] البيان والتبيين ، 67/1.

المتلقي[1] . على حين نُقل الاهتمام عن الأصوات ، ولم تُرَ عُمداً في المزيّة في نصّ عبد القاهر. ولا شك أنّ الرّؤية الكليّة للنّصّ الجديد التي حَدَت به إلى رؤية الجمال في العلاقات بين الأجزاء أمرٌ لافتٌ في النّصوص النّقديّة القديمة ، لكننا لا ننكر أنه أغفل الجانب الصّوتي الإيقاعيّ ، على حين انصبّ اهتمام نصّ الجاحظ على المستويين العموديّ والأفقيّ للتّركيب ، ونظر إلى النصّ من جوانبه كلّها، منطلقاً من قناعة فحواها أنّ «التّأليف يزيد الأجزاء الحسنة حسناً»[2]. ومن مواضع الاشتباك المهمّة التي لا يمكن تجاهلها التنبّه على تعدّد مستويات الكلام[3]؛ ، وربط البليغ منها بالتأويل والمجاز الذي يجافي المباشرة في علاقة اللّفظ بالمعنى ؛ إذ تتحصّل الدّلالة المقصودة بواسطة ؛ والكلام هنا عمّا أشار إليه نصّ عبد القاهر بقوله " معنى المعنى"[4] .

إذن يتشرّب نصّ عبد القاهر نصّ الجاحظ ؛ يذيبه في نصّه ، ويستثمر مقولاته ؛ ليبرزها بصورة أجلى ؛ خاصة "صورة المعنى" التي أنتجها نصّ الجاحظ ، وأصّلها نصّ عبد القاهر ؛ فأكثر ذكرها ، والتّمثيل لها ، وأوضح الفرق بينها وبين "المعنى". وهذا التّأصيل ، والتّمثيل ، والتّوسيع ليس بالأمر الهيّن ؛ خاصة إذا لاحظنا أنّ نصّ عبد القاهر تمكّن بتفاعله مع نصّ الجاحظ من الكشف عمّا لم تكشف عنه النّصوص الأخرى في تفاعلها مع نصّ الجاحظ نفسه ؛ فقد غاب مفهوم " صورة المعنى" عن النصوص التي أتت بعد الجاحظ ، وكان لا بُدّ من الانتظار قرنين من الزّمن لتأصيل هذا المفهوم في نصّ عبد القاهر؛ وفي هذا إشارةٌ إلى فاعلية أدوات هذا النّصّ ، وقدرته الفائقة على الامتصاص والتّحويل. وهذا القول لا يعني أنّ نصّ عبد القاهر مجرّد إعادة تشكيلٍ لنصّ الجاحظ ، وإنّما نؤكّد فيه تأكيد انتساب اللّاحق إلى السّابق في القضيّة المدروسة، مع

[1] ينظر: كتاب الحيوان ، ٧٤/١-٧٥ ، ١٩١/٤-١٩٤ ، والبيان والتبيين ، ٨٨/١-٨٩ ، وغيرها.
[2] رسائل الجاحظ ، 89/4 .
[3] ينظر: البيان والتبيين ، 144/1، وكتاب دلائل الإعجاز ، ٧ ، ٩٨ .
[4] ينظر: كتاب دلائل الإعجاز ،٢٦٣.

ملاحظة عدم التّطابق الكامل بين مفهوم "صورة المعنى " في النّصّين عند الحديث عن الجانب الصّوتيّ. وفي هذا السّياق نشير إلى أنّ تعدّد مرجعيّات نصّ عبد القاهر ، وحضورها الجليّ في نصّه من جهة ، وسيطرة النّسق البلاغيّ على نصّ الجاحظ من جهة أخرى أحد أهمّ الأسباب الدّافعة إلى هذه الفروق بين النّصّين.

التناصّ مع نصّ قدامة بن جعفر:

نقرأ في كتاب دلائل الإعجاز النصّ الآتي: « ومعلومٌ أنّ سبيل الكلام سبيل التّصوير والصّياغة ، وأنّ سبيل المعنى الذي يعبَّر عنه سبيلُ الشّيء الذي يقع التّصوير والصّوغ فيه ، كالفضّة والذّهب يُصاغ منهما خاتَمٌ أو سوارٌ. فكما أنّ محالاً إذا أردتَ النّظر في صوغ الخاتم ، وفي جَودة العمل ورداءته ، أن تنظر إلى الفضّة الحاملة لتلك الصّورة ، أو الذّهب الذي وقع فيه ذلك العمل وتلك الصّنعة كذلك محالٌ إذا أردت أن تعرف مكان الفضل والمزيّة في الكلام ، أن تنظر في مجرّد معناه...»[1].

يستحضر هذا النصّ عدداً من النّصوص البلاغيّة ؛ من أبرزها نصّ قدامة بن جعفر الذي قدّم رؤية تلتقي رؤية نصّ عبد القاهر في نصّ جاء فيه: «...المعاني كلّها معرضة للشّاعر، وله أن يتكلم منها فيما أحبّ وآثر ، من غير أن يُحظر عليه معنى يروم الكلام فيه ، إذ كانت المعاني للشّعر بمنزلة المادّة الموضوعة ، والشّعر فيها كالصّورة ، كما يوجد في كل صناعة من أنه لا بدّ فيها من شيء موضوع يقبل تأثير الصّور منها ، مثل الخشب للنّجارة ، والفضّة للصّياغة وعلى الشّاعر إذا شرع في أي معنى –كان– من الرّفعة والضّعة ، والرّفث والنّزاهة ، والبذخ والقناعة ، والمدح وغير ذلك من المعاني الحميدة أو الذّميمة ، أن يتوخّى البلوغ من التّجويد في ذلك إلى الغاية المطلوبة»[2].

[1] كتاب دلائل الإعجاز ، 254-255.

[2] نقد الشعر ، ٦٥-٦٦.

مَن يقرأ هذا النصّ مجرّداً من سياقه النقديّ الكلّيّ الذي ينتمي إليه (نصّ نقد الشّعر) قد يذهب إلى تطابق رؤيته مع رؤية نصّ عبد القاهر ؛ باستثناء موقف الأخير من المعاني العقليّة والحكميّة التي ينسب إليها – في بعض المواضع–شرفاً مجرّداً من الصّنعة[1]، على حين ينفي عن المعنى الأصل أية مزية في مواضع كثيرة جرياً مع النّسق البلاغيّ المسيطر الذي يهتم بالخاصيّة النوعيّة لهذا الفنّ القوليّ. ويشترك النّصان (نصّ قدامة المذكور ونصّ عبد القاهر) –كما هو واضح– في قياس الشّعر على مجمل الصّناعات التي تُقوّم بجماليّة شكلها دون مادّتها.

إنّ جماليّة الشّكل/ الصّورة –كما كشف نصّ عبد القاهر– انعكاس لإتقان البناء الذي يتعرّف بطبيعته اللّغوية في الشّعر ؛ أي إنّ جمال الشّكل نتيجة لطريقة خاصّة في التّركيب / النّظم ، يتوخّى فيها النّاظم معاني النّحو وأحكامه ، وفقاً لسمتٍ نفسيّ يتجلّى في صورة لفظيّة. والنّصوص التي تجلو ذلك كثيرة تنظيراً وتطبيقاً[2]. على أية حال فقد قاده هذا الفهم إلى بلورة رؤية متماسكة للنّظم والأسلوب ، وفهم متميز للسّرقات الشّعريّة ميّزه من كثير من النّصوص التي حكمت بالأخذ والسّرقة نتيجة تداول المعنى الأصل ، على حين رأى نصّ عبد القاهر أن الأخذ لا يكون في المعنى الأصل بل في الأسلوب وصورة المعنى. وهنا تكثر دوالّ (الأخذ) ، و(الاحتذاء) ، و(الاتّباع) ، ويقلّ دالّ السّرقة في إشارة دالّة على الرّؤية السّابقة[3]. والسّؤال هنا : هل انطوى نصّ قدامة على هذا الفهم الذي يقتضيه حكمه على الصّناعة الشّعرية بأنها تصوير؟ مع الإشارة إلى أنّنا لا نريد – بالقطع– بسط هذه الرّؤية على النّحو النّاضج الذي تجلّت به في نصّ عبد القاهر.

نستطيع القول إن قراءة نصّ نقد الشّعر لم تتح لنا الوقوف عند ما يقارب الفهم السّابق . ونؤيّد قولنا هذا بأمور عدّة ؛ أهمّها:

[1] ينظر: كتاب أسرار البلاغة ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٢٦٣–٢٦٦ ، ٢٧٣.

[2] ينظر: نفسه ، ٤–٥ ، وكتاب دلائل الإعجاز ، ٨٥ –٨٦، ١٠٠–١٠٣ ، ٢٨٨–٢٩٠ ، ٣٧٠.

[3] ينظر: كتاب أسرار البلاغة، ٢٦٣،٢٩٣ ، وكتاب دلائل الإعجاز ، ٤٦٨–٤٧٣ ، ٤٨٣–٤٨٦ ، ٥٠٢ ، ٥٠٩.

– يحمل فهم الشّعر بوصفه تصويراً في نصّ عبد القاهر إقراراً بوحدة اللّفظ والمعنى ؛ فلا استقلال للصّورة عن المعنى ، وكلّ قول شعريّ هو –بالضّرورة– دالّ على معنى. لكنّ الحدّ الذي وضعه نصّ قدامة للشّعر بكونه قولاً موزوناً مقفًى يدلّ على معنى[1] قد يشي بخلاف ذلك ، ويجلو رؤية تفصل اللّفظ عن المعنى في الوجود. لكنّ الأهمّ –هنا– أن هذا الحدّ يجعل من الوزن والقافية ماهيّة للشّعر ، وحدّاً ينماز به من غيره من ضروب القول. على حين يُفهم من التّصوير في النصّ اللّاحق أن صنعة الشّاعر ، وتشكيله الصّور هو ما يكون به الشّعر شعراً. وبهذا نستطيع أن نلمس خللاً في رؤية نصّ قدامة لماهيّة الشّعر ، على حين كانت الرّؤية منسجمة في نصّ عبد القاهر الذي أعاد التّشكيل إلى النّظم جليّاً في الدّلائل ، ومضمراً في الأسرار[2]، ورأى التّخييل جوهر الشّعر[3].

– إذا تسامحنا في الفهم ، وذهبنا إلى أن الوزن والقافية في حدّ الشعر هما الإطار أو الشّكل الخارجيّ الذي تتشكّل به المعاني ، فإنّ نتيجتين تنجمان عن ذلك ؛ الأولى مفارقة الصّورة للمعنى في الوجود ؛ فالوزن والقافية في (نقد الشّعر) أشبه بإطار خارجيّ يحتوي المعنى ، أو حلية خارجيّة تُلصق به[4]. والأخرى هي نهائيّة صور المعاني وأشكالها ؛ بسبب محدوديّة الأوزان والقوافي ، وتعيين صلتها بالشّاعر بمجرّد تخيّر الوزن والقافية المناسبين للمعنى. وهذا ينافي القول بالتّصوير ، وتشبيه عمل الشّاعر بعمل النّجار الذي ينتج تشكيلات لا نهائيّة للمادّة المصنوعة ، يوجّه كلّ شكلّ منها إلى صانع بعينه.

– يدلّنا استقراء (نقد الشّعر) على أنّ نصّ قدامة لم يفصل بين اللّفظ والمعنى على نحو حادّ كما كانت الحال مع نصّ ابن قتيبة مثلاً ، إلا أنه لم يرقَ – في الوقت نفسه – إلى

[1] ينظر: نقد الشعر ، ٦٤.

[2] ينظر مثلاً : كتاب أسرار البلاغة ، ٥ ، ٢٤ ، ١٩٥ ، ٢٤٨.

[3] ينظر : نفسه ، ٢٦٥.

[4] نرى ذلك مثلاً في الكلام على عيوب ائتلاف اللفظ والوزن ، وعيوب ائتلاف المعنى والوزن معاً ؛ ينظر: نقد الشعر ، ٢٠٦–٢٠٩ ، وجواهر الألفاظ ، ٣–٨.

تصوّر يوحّد بينهما على نحو جليّ لا لبس فيه. وكلامه –مثلاً– على ائتلاف عناصر الشّعر الأربعة (اللّفظ ، والمعنى ، والوزن ، والقافية) يؤكّد ذلك ؛ فمع أنه تكلّم على كلّ عنصر على حدة ، فقد حاول النّظر إلى النصّ الشّعريّ من خلال تآلف هذه العناصر بعضها مع بعض[1]. وهذا – كما رأى كثيرون[2]– بفعل مرجعيّات النصّ التي يتّصل معها بصلاتٍ وشيجةٍ تحكم اللّاحق بفكر السّابق ومنهجيّته ؛ فقد اقتسر نصّ قدامة بفعل مرجعيّته المنطقيّة الواضحة هذه التّقسيمات ، وفكّك النصّ إلى عناصر مفردة ، ووضع حدّاً للشّعر يضبط هذه العناصر. على حين غفل بسبب سيطرة المرجعيّة الآنفة الذّكر ، وغياب نظيرتيها اللّغوية والنّحوية عن النّظر إلى الشّعر عبر العلاقات النّحوية التي تحكمه ؛ فمع إدراكه أنّ الشّعر صناعة لغويّة ، فإنّ طبيعة النّصوص التي ينبثق منها لم تمكّنه من ربط ذلك بالعلم الضّابط للّغة (علم النّحو) على النّحو الذي رأيناه في نصّ عبد القاهر مثلاً.

– لم يتنبّه نصّ نقد الشّعر على تأثير المقام في بناء النصّ الشعريّ ، كما غابت عنه الرؤية الجماليّة ، وانشغل عن إبراز الجانب النفسيّ بتقسيمات منطقيّة جافّة ، غافلاً عن صلة هذا الجانب بالتّصوير ؛ فالشّاعر يصوّر المعاني ويبني نصّه الخاصّ إبانةً عن ذاته ، وإظهاراً لمكنونات نفسه ، ورغبة في التّأثير في المتلقي من جهة أخرى. ومع أنّ النصّ أكّد تفاوت جودة الشّعر باختلاف براعة الشّاعر وحِذقه في صناعته[3]، فإنّ النّظرة المنطقيّة العقليّة الحادّة أبعدته عن ربط هذه الصّنعة بخصوصيّة الشّاعر، وأسلوبه الخاصّ.

---

[1] ينظر: نقد الشعر ، ٧٣–١٧٠.

[2] منهم: د. محمد عبد المنعم خفاجي محقّق (نقد الشعر) ؛ ينظر: نقد الشعر (مقدّمة المحقق) ، ٥٦–٥٨ ، ود.إحسان عباس ؛ ينظر: تاريخ النقد الأدبي عند العرب (نقد الشعر) من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري ، ١٨٩ وما بعدها ، ود. محمد زكي العشماوي ؛ ينظر: قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث ، ٢٨٥.

[3] ينظر: نقد الشعر ، ٦٤–٦٥.

إنّ أهمّ ما يمكن استنتاجه من استقراء نصّ نقد الشّعر أنّ كلامه على تصوير المعاني لم يبلور رؤية جماليّة توحّد الشّكل والمادّة ؛ إذ يبقى الشّكل خارجيّاً يمكن فصله بيسرٍ عن المادّة . وهو في هذا يخالف جوهر التّصوير في نصّ عبد القاهر الذي وحّد بين الشّكل والمعنى حتى صحّ القول إنّ الشّكل فيه هو المعنى وقد تجلّى. وإذا كان النصّ الذي أثبتناه من نقد الشّعر يَدين بوجوده لتفاعل (نقد الشّعر) مع النّصوص المنطقيّة ، فإنّ الواضح أن النصّ المقصود هنا هو في الغالب نصّ الفارابي (٣٣٩هـ) الذي فهم المحاكاة بوصفها محاكاة خارجيّة ، مقترباً من الفهم الأفلاطونيّ للمحاكاة . ومن هنا فقد قرن الشّعر بالتّصوير ، متجاهلاً مقارنته بالموسيقا والرّقص في نصّ كتاب الشّعر لأرسطو (٣٢٢ق.م) ؛ ليغدو تلخيص نصّ الفارابي لكتاب أرسطو فهماً خاصاً له[1]. وعليه ، فإنّ علاقة نصّ عبد القاهر بسلفه الذي يستدعيه في كلامه على صور المعاني (نصّ نقد الشّعر) أقرب إلى تحويل النّقض الذي يقرّ المقولة ، ثمّ يختلف معها في الفهم، والتّفسير، والتّوظيف ، ومن ثمّ في تشبيكها مع مقولات النصّ الأخرى.

وهنا نشير إلى أنّ الرّبط بين الصّناعة الشّعريّة وغيرها من الصّناعات اليدويّة لا ينحصر في النّصوص ذات المرجعيّة الفلسفيّة ، وإن كانت هذه النّصوص هي الأبرز بهذا الخصوص ؛ نذكر منها نصوص: أبي تمام الطّائيّ(٢٣١هـ)، والجاحظ ، وقدامة بن جعفر ، والرّمانيّ ، وابن سينا ؛ فقد شبّه الشّعراء صُنع القصيدة بالنّسج والصّوغ وغيرها إظهاراً لبراعتهم ، وإحكام صنعتهم منذ الجاهليّة . ويكفي أن نستدلّ –هنا– بقول طرفة ابن العبد[2]:

خُذُوْهَا ، ذَوِيْ الأَلْبَابِ ، أَحْكَمَ نَسْجَهَا وَصَنَّفَهَا ، مُسْتَحْكِمُ القَوْلِ صَادِقُهْ

[1] ينظر: نظرية المحاكاة في النقد العربي القديم (دراسة تطبيقية في شعر أبي تمام وابن الرومي والمتنبي) ، ٢٢–٢٥.

[2] ديوانه ، ١٧٤.

كما يلفتنا في هذا الخصوص كيفيّة تحويل نصّ عبد القاهر نصوص سابقيه ؛ إذ نجد أنّ هذا النصّ لا يستكين لسلفه حتى في حال موافقته ، ولا يسلّم بصحّته المطلقة ، بل يعيد قراءته مراراً، كاشفاً حُجبه ؛ ليبدأ فعل التّحويل من النصّ المحوّل نفسه ؛ ففي الاقتران الشّائع بين الشّعر وباقي الصّناعات يلفت نصّه إلى فرق متعلّق بطبيعة المادّة ؛ ففي النّسج والصّياغة يمكن أن تتطابق صورتان يُنشئهما صانعان مختلفان ، يقتفي أحدهما أثر الآخر دون أن يميّز الرّائي بين الصّورتين . أمّا في الكلام ، فالأمر محال ؛ إذ لا إمكانية لتساوي صورتين لمعنى واحد إلّا عند إعادة القول نفسه[1]. ومن هنا فإنّ المعاني تُشهر بصورتها ، وتُنسب إلى قائل بعينه.

خاتمة:

سعى هذا البحث إلى تقديم شاهدٍ على فاعليّة التناصّ في قراءة النصّ النقديّ وتأويله، محاولاً لفت الانتباه إلى خصوبة هذا الحقل المعرفيّ المهمل، وتأكيد الصّلة بين جدّة الأداة المعرفيّة وفاعليّة القراءة.

ويمكن القول –ختاماً– إنّ القراءة السّابقة أيقظت نصوصاً انطوى عليها نصّ عبد القاهر وتناصّ معها بعلاقات مختلفة ، وعالجت التناصّ بين نصّ عبد القاهر من جهة ونصّين آخرين استحضرهما في كلامه على صورة المعنى من جهة أخرى ؛ هما : نصّ الجاحظ ، ونصّ قدامة بن جعفر ؛ فكشفت عن ضربين مختلفين من التّفاعل النّصيّ. فقد بدا نصّ الجاحظ مركزيّاً في النصّ الجديد ، جليّ الحضور ، تحضر مقولته حول التّصوير وصورة المعنى بهويّة شديدة القرب إلى هويّتها الجديدة ؛ إذ يبدو التّحويل الذي أحدثه النصّ الجديد طفيفاً يناسب أيديولوجيّته الخاصّة المنبثقة من مرجعيّات نصيّة متنوّعة. لكنّنا – مع ذلك – لم ننتهِ في التّحليل إلى إقرار خضوع اللّاحق للسّابق في هذه

[1] ينظر: كتاب دلائل الإعجاز ، ٢٦٠–٢٦١.

العلاقة النّصيّة ، بل نسبنا إلى نصّ عبد القاهر الذي نقل صورة المعنى– دالّاً ومدلولاً– من نصّ الجاحظ فضيلة التّأصيل والتّوسيع ؛ خاصّة أنّ النّصوص الأخرى أحدثت قطيعة مع نصّ الجاحظ في القضية المذكورة. وفي التّفاعل مع نصّ قدامة بن جعفر مكّنتنا القراءة التناصيّة من سبر أغوار النّصّين المتفاعلين ؛ لتتكشّف علاقة أخرى يتماثل فيها السّطح، ويختلف اللّاحق مع السّابق ويعاكسه في العمق ؛ فالنّصان يقرّان التّصوير، بيد أنّ مفهومه مختلف بين النّصين ، كحال تشبيكه بمقولات النّصّين الأخرى.

وبعد ، فهذه المحاولة قراءة غير نهائيّة لصورة المعنى في نصّ عبد القاهر الجرجانيّ، وهي واحدةٌ من قراءات متعدّدة ، قد لا تلغي صحّة إحداها صواب الأخرى ؛ فالباب ما زال مشرّعاً على قراءاتٍ أخرى تناقد هذا النصّ النّقديّ الغنيّ ، أو تتخيّر سبر أغوار غيره.

المصادر والمراجع:

1– الأصفهاني ، الرّاغب ، (د.ت) – **المفردات في غريب القرآن.** أعدّه للنشر ، وأشرف على الطّبع: د. محمد أحمد خلف الله ، مكتبة الأنجلو المصرية ، 851.

2– ألان ، جراهام ، 2011م – **نظريّة التناصّ.** ترجمة: د. باسل المسالمه ، دار التّكوين، ط1. دمشق ، 318.

3– الجاحظ ، عمرو بن بحر، 1998م – **البيان والتبيين.** ج1+ج٣+ج4 ، **تحقيق: عبد السّلام محمد هارون** ، مكتبة الخانجي، ط7 . مصر ، ج1(412) ، ج٣(٣٧٨) ، ج4(339).

4- الجاحظ ، عمرو بن بحر، 1965م – **كتاب الحيوان** .ج1+ج٣+ ج4+ ج6 ، تحقيق: عبد السّلام هارون ، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، ط2. مصر ، ج1(428) ، ج٣(٥٤٨) ، ج4(503) ، ج6(515).

5-الجاحظ ، عمرو بن بحر ، 1991م- **رسائل الجاحظ**. ج١+ ج3 +ج٤، تحقيق: عبد السّلام محمد هارون ، دار الجيل ، ط1. بيروت ، ج١(٣٩٣) +ج3 (351) + ج٤ (٤٢٤).

6- الجرجاني ، عبد القاهر ، 1991م –**كتاب أسرار البلاغة**. تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني ودار المدني ، ط1. القاهرة وجدّة ، 403.

7- الجرجاني ، عبد القاهر ، 1992م – **كتاب دلائل الإعجاز** . تحقيق: محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني ودار المدني ، ط3. القاهرة وجدّة ، 684.

8- ابن جعفر ، قدامة ، 1932م – **جواهر الألفاظ**. تحقيق: محمد محيي الدّين عبد الحميد ، مكتبة الخانجي ، ط1. مصر ، 452.

9- ابن جعفر ، قدامة ، (د.ت) – **نقد الشعر** . تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي ، دار الكتب العلميّة ، بيروت ، 216.

10- الرّماني ، والخطّابي ، وعبد القاهر الجرجاني ، (د.ت) – **ثلاث رسائل في إعجاز القرآن**. تحقيق: محمد خلف الله ، و د.محمد زغلول سلّام ، دار المعارف ، ط3 . مصر ، 230.

11- صبحي ، أحمد محمود ، 1985م – **في علم الكلام (دراسة فلسفية لآراء الفرق الإسلاميّة في أصول الدّين).** ج2(الأشاعرة) ، دار النّهضة العربيّة ، ط5. بيروت ، 396.

12- طاليس ، أرسطو ، 1993م – **في الشّعر .** تحقيق: د. شكري محمد عيّاد ، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب . مصر ، 293.

13- عبّاس ، إحسان ، 1983م – **تاريخ النقد الأدبي عند العرب (نقد الشعر) من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري.** دار الثقافة ، ط4 . بيروت ، 657.

14- ابن العبد ، طرفة ، 2000م – **ديوانه.** شرح الأعلم الشّنتمري ، وتليه طائفة من الشعر المنسوب إلى طرفة ، تحقيق: درية الخطيب ، ولطفي الصّقال ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ودائرة الثقافة والفنون ، ط2. بيروت والبحرين ، 378.

15- العشماوي ، محمد زكي ،1979م – **قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث.** دار النّهضة العربية ، ط1. بيروت ، 445.

16- ابن فارس ، أحمد ، – **معجم مقاييس اللّغة.** ج3 ، تحقيق: عبد السّلام محمد هارون، دار الفكر ، 478.

17- قصبجي ، عصام ، 1980م – **نظرية المحاكاة في النقد العربي القديم (دراسة تطبيقية في شعر أبي تمام وابن الرومي والمتنبي).** دار القلم ، ط1. دمشق ، 376.

18- مجموعة من المؤلّفين ، 2013م –**آفاق التّناصيّة (المفهوم والمنظور) .** تعريب وتقديم: محمد خير البقاعي ، جداول، ط1. بيروت ، 247.

19- ابن منظور ، (د.ت) – **لسان العرب.** تحقيق: عبد الله علي الكبير ، ومحمد أحمد حسب الله ، وهاشم محمد الشاذلي ، دار المعارف . القاهرة ، 4978.

- الدّوريّات:

1- موزاي ، ليلى بيرون ، 2005م- **التّناص النّقديّ .** ترجمة: سعيد بن الهاني ، نوافذ، العدد 34 ، السّعوديّة ، 283.

The Arabic references in English:

1-Abbas, Ihsan, 1983 - **A history of literary criticism of the Arabs (critique of poetry) from the second century until the eighth century**. Athakafh publishing , 4th edition. Beirut, 657.

2-A group of authors, 2013 - **Horizons of intertextuality (concept and perspective)**. Translated by: Muhammad Khair Al-Beqai, , 1st edition. Beirut, 247.

3-Al-Asfahani, Al-Ragheb, **Vocabulary in the strange Qur'an**. Investigated by: Dr. Muhammad Ahmad Khalaf Allah, The Anglo-Egyptian Library, 851.

4-Al-Ashmawi, Muhammad Zaki, 1979 - **Issues of literary criticism between ancient and modern**. Al-nahda Al-Arabiya publishing , 1st edition. Beirut, 445.

5-Al-Jahidh, Omr ben Bahr, 1998-**AL-bayan wa al-ettabyine**. Investigated by: Abdul Salam Muhammad Haroun, Al-Khanji publishing, 7th edition. Egypt, part 1(412), part 3 (378), part 4 (339).

6-Al-Jahidh, Omr ben Bahr, 1965 **– Al –Haiwan**. Investigated by: Abdel Salam Haroun, Mustafa Al-Babi Al-Halabi Library and Press, 2nd edition. Egypt, part 1 (428), part 3 (548), part 4 (503), part 6 (515).

7-Al-Jahidh, Omr ben Bahr, 1991- **Al-Jahidh letters**. Investigated by: Abdel Salam Muhammad Haroun, Dar Al-Jeel, 1st edition. Beirut, part 1 (393) + part 3 (351) + part 4 (424).

8-Al-Jurjani, Abdel-Qaher, 1991.**Rhetoric Secrets**. Investigated by: Mahmoud Muhammad Shaker, Al-Madani Publishing, 1st edition. Cairo and Jeddah, 403.

9-Al-Jurjani, Abdel-Qaher, 1992 - **The Miracle Signs " Dala'el - Al-Ejaz"**. Investigated by: Mahmoud Muhammad Shaker, Al-

Madani publishing and Dar Al-Madani, 3rd edition. Cairo and Jeddah, 684.

10-Allen, Graham, 2011 - **Intertextuality Theory**. Translated by: Dr. Basil Al-Masalmeh, Dar Al-Takween, 1st edition. Damascus, 318.

11-Al-Rumani, Al-Khattabi, and Abdul-Qaher Al-Jurjani, **Three studies of Qur'anic miracle**. Investigated by: Muhammad Khalaf Allah, and Dr. Muhammad Zaghloul Salam, Dar Al-Maaref, 3rd edition. Egypt, 230.

12-Iben al-Abed, Tarfa, 2000 – **Diwan Tarafa** . Investigated by: Doriya Al-Khatib, Lotfi Al-Saqal, The Arab foundation for studies and publishing, and the department of culture and arts, 2nd edition. Beirut and Bahrain, 378.

13-Iben Faris, Ahmad, **A Dictionary of Language Standards**. Investigated by: Abdel Salam Muhammad Haroun Al-fikr publishing , 478.

14-Iben Jaafar, Qudamah, 1932 - **The jewels of words**. investigated by: Muhammad Muhyi Al-Din Abdul Hamid, Al-khanji publishing, 1st edition. Egypt, 452.

15-Iben Jaafar, Qudamah, **Criticism of poetry**. Investigated by: Muhammad Abdel-Moneim Khafaji, Al-Kutub al-Ilmiyya publishing, Beirut, 216.

16-Iben Manzor, **The Arab Tung**. Investigated by: Abdullah Ali - Al-Kabeer, Muhammad Ahmad Hassaballah, and Hashem Muhammad Al-Shazly, Al –maaref publishing, 4978.

17-Qasabji, Essam, 1980 - **Theory of Simulation in ancient Arabic criticism**. Al-Qalam publishing, 1st edition. Damascus, 376.

18-Sobhi, Ahmed Mahmoud, 1985- **Ilm al-kalam (a philosophical study of the views of Islamic sects in the origins of religion)**. Al-nahda al-arabiya publishing, 5th edition. Beirut, 396.

19-Thales, Aristotle, 1993- **In Poetry**. Investigated by: Dr. Shukry Mohamed Ayyad, general egyptian book organization. Egypt, 293.

Journals:

1-Mozay, Laila Beron, 2005 - **Critical Intertextuality**. Translation by: Saeed ben Al-Hani, Nawafidh , No. 34, Saudi Arabia, 283.